إنّها رحلة البابا فرنسيس الأولى خارج الفاتيكان منذ تفشي وباء كورونا، وهي الزيارة الأولى في التاريخ لحبر أعظم إلى العراق. ولكن، ليس لهذين السببين فقط، تصنّف الزيارة البابوية إلى بلاد الرافدين بين 5 و8 مارس/ آذار الحالي، بـ"التاريخية".

توقّع كثر أن يلغي البابا رحلته، وعدّها آخرون مخاطرة، مع تفشّي الوباء، والتفجيرين الانتحارين في ساحة االطيران وسط بغداد في يناير/ كانون الثاني الماضي، وسقوط قتلى خلال قمع الأمن لاحتجاجات في محافظة ذي قار قبل أيام.

يضاف إلى ذلك، الإعلان عن إصابة السفير البابوي في العراق، ميتجا ليسكوفار، بفيروس كورونا. وهو من الشخصيات المحورية في التحضير للزيارة على المستويات الدبلوماسية واللوجستية.

كلّ ذلك، لم يدفع الفاتيكان إلى التأجيل، إذ يبدو أنّ فرنسيس مصر على الذهاب إلى مطار روما صباح الجمعة المقبل، والتوجه إلى بغداد، ومنها، خلال الأيام اللاحقة، إلى كل من النجف وسهل أور واربيل وقرقوش والموصل.فما هي أسباب هذا الإصرار؟ وما الذي يجعل هذه الرحلة بالذات، "تاريخية"، خصوصاً أنّ هناك بلداناً كثيرة لم يزرها أي بابا بعد، وقد يكون لها أهميّة وازنة مثل روسيا والصين وغيرهما؟

حلم فاتيكاني قديم

حين تدوس قدماه أرض العراق، يحقّق البابا فرنسيس حلماً قديماً لسلفه البابا يوحنا بولس الثاني الذي خطّط عام 2000 لزيارة مماثلة، بهدف الحج إلى مسقط رأس النبي إبراهيم، ضمن رحلته إلى الأراضي المقدسة، مطلع الألفية.

لكن النظام العراقي السابق أعلن، في تلك الفترة، عن عدم قدرته على تنظيم الزيارة، بسبب ظروف الحصار الذي كان مفروضاً على البلاد.

كذلك، أثارت نية البابا الجدل حينها، إذ كتب معارضون لنظام البعث السابق رسالة إلى الحبر الأعظم، طلبوا منه "عدم المضي في مسعاه لزيارة بلاد تقبع تحت حكم ديكتاتوري".

وبعد نحو عشرين عاماً، نجحت مبادرات لشخصيات كنسية عراقية بإحياء الفكرة، ووجه الرئيس العراقي، برهم صالح، دعوة رسمية للبابا لزيارة البلاد.منذ توليه منصبه في عام 3102، اتسم خطاب البابا فرنسيس بحساسية عالية تجاه الفقراء والمهمشين والمتعبين، هو الآتي من إرث لاهوت التحرير في أمريكا اللاتينية، وحامل فلسفة الرهبنة اليسوعية القائمة على التبشير.

وبرز هذا التوجه في خطوات عملية، مثل تعيينات لبطاركة ومطارنة من جنسيات وأعراق مختلفة، ومثل توسيع نطاق زياراته، خارج جغرافيا الكثلكة الأوروبية. وكأنّه يحاول أن يثبت أنّ الكنيسة في عهده لن تكون تلك المؤسسة العجوز ذات الحصرية الأوروبية، بل ستحاول أن تخاطب كافة الأديان والشعوب.

بزيارته للعراق، يرى بعضهم أن فرنسيس يخطو خطوة جديدة في اتجاه تثبيت نفسه "رسولاً للمتعبين"، لا يهتمّ بملاقاة أقوياء العالم، بل يذهب إلى ضعفائه أيضاً، ويقدم رسالة احتضان إلى الشعوب الجريحة تحت وطأة

الحروب والانقسامات.

دعم معنوي... وأكثر

تعدّ الطوائف المسيحية في العراق، من كلدان وأشوريين وسريان وغيرهم، من أقدم الكنائس المسيحية في الشرق والعالم على الإطلاق.

ورغم أنّ جذورها ضاربة في تاريخ العراق منذ القرن الأول، إلا أنّها عانت من الاضطهاد لفترات طويلة، ما أدّى إلى هجرة مسيحيين كثر من قراهم. وبلغت تلك الهجرة ذروتها بعد غزو العراق عام 3002، واشتدت بعد صعود تنظيم داعش.

وتعد زيارة شخصية بحجم بابا الفاتيكان إلى العراق، رسالة دعم معنوية كبيرة ليس فقط لمن بقي فيه من مسيحيين، ولكن أيضاً للأقليات الأخرى.

ولأن بابا الفاتيكان ليس شخصية اعتبارية فقط، بل رئيس دولة، فإنّ لهذه الزيارة أبعادا سياسية واضحة، وفيها تشديد على ترسيخ المسيحيين العراقيين خصوصاً، والعرب عموماً، في أراضيهم وبلدانهم، وكجزء أساسي من نسيج مجتمعاتهم، وليس كوافدين أو زوّار.

ومع انطلاق عجلة إعمار ما دمّر من كنائس أثرية وتاريخية في الموصل وبغداد وغيرهما، فإنّ زيارة فرنسيس قد تنعكس إيجاباً، لناحية تحفيز المهتمين على تقديم المساندة اللوجستية والمادية.

كاتب المقالة :
تاريخ النشر : 05/03/2021
من موقع : موقع الشيخ الدكتور/ محمد فرج الأصفر
رابط الموقع : www.mohammdfarag.com